تأملات في المجتمع

١. المسرح الكبير.
٢. الغيبة.
٣. المرأة.
٤. علاقة المسامحة والمشاحّة.
٥. حكومة الأخلاق.
٦. العدالة والحرية.
٧. قليل من السياسة.
٨. الزمن.
٩. الربا ولحوم السباع.
١٠. إدارة الفراغ.
١١. الأسعار فلسفة حياة.

obeikandl.com

obeikandl.com

١ المسرح الكبير

obeikandl.com

obeikandl.com

المسرح الكبير

يفرض أي مجتمع إنساني على أفراده أنماطاً من السلوك تنسجم مع منظومة قيمه ومعتقداتـه، ولكـن المجتمعات البشرية تختلف عن بعضها في اسـتبدادية هذه الأنماط وقسوة العقوبة التي تنزل بالمخالفين.

المجتمـع العـربي (النجدي بشـكل خـاص) يبالغ في فـرض أنماط محـدودة من السـلوك بما فيها أسـاليب الكلام والمظهر العام...إلخ إلى درجة تجعل الإنسـان الذي يخشـى النقد أو يرغب في العيش بسلام يلتزم بشكل صارم بهذه الأنماط (راجع قائمة الواجبات في فصل تقدير الذات).

وأصبـح مـن الصعـب على الإنسـان أن يكون نفسـه كـما يحب، بـل اضطر كل إنسـان إلى أن يـؤدي دوراً يعتقد أن المجتمـع يكافئه على القيام بـه، ويبالغ بعضهم في هذا التقمص، لدرجة يمكن تشـبيهها بالتمثيل على خشبة مسرح. فتحولت شوارعنا وحاراتنـا وأسـواقنا إلى ما يشـبه المـسرح الكبير والمخـرج (المجتمع) يـوزع الأدوار، ويحدد النصوص، ويعاقب الخارجين عن النص.

الثمن الذي ندفعه مقابل إنتاج هذه المسرحية العبثية باهظ جدًّا. اختفاء الإبداع وظهور الأمراض النفسية وغياب وتهميش للسعادة.

يتسـاءل بعض المسـافرين عن سر تلك النشـوة التي تهبط عليهم عند وصولهم إلى بلد المقصد (المعني هنا المسـافرون الملتزمـون ظاهريًّا ببعض الضوابط) وأعتقد أن ذلك الشعور اللذيذ منبعه هو التمتع بالإجازة الحقيقية من التمثيل، وهو العمل الذي يفرضه المجتمع بشكل مستمر.

obeikandl.com

محاولات الخروج من المسرح دون مغادرة المجتمع تتسبب في عقوبات صارمة. ومـن المعـروف في علم النفـس الإكلينيكـي أن الحاجة البشرية للقبـول والخوف من الرفض أحد المحددات الكبيرة للسلوك البشري.

إحدى الآليات التي يستخدمها المجتمع (المخرج) لمن يرفض التمثيل في المسرح هي إطلاق الألقاب القبيحة. حاول أن تتذكر بعض زملائك في المتوسـطة أو الثانوية أو بعض الأشقياء في الحارة ممن كانت لديهم نزعة فردية استقلالية، فستجدهم الأكثر تعرضاً للألقاب (تسـمى في عامية نجد المعايير ومفردها: معيارة) وقد فطن إلى ذلك عبدالله المحيميد في كتابه الجميل (تقشير).

إن الصعـود لخشـبة المسرح الاجتماعي الكبير بشـكل يومـي ودون انقطاع أمر بالغ الصعوبة مرهق نفسـيًّا مكلف اقتصاديًّا مسـتنزف للطاقات قامع للإبداع. بل إن العبادة الخالصة المجردة تصبح صعبة المنال.

يذكـر أحد الإخـوة أنه يشـعر بمتعة مضاعفـة في الصلاة، عندمـا يكون خارج مجتمعـه أو في الـبر، حيث لا يجد الشـيطان مدخـلاً، ويصبح الإخـلاص أمراً أقرب للتحقيق.

هل من حل يريحنا (ولو جزئيًّا) من هذا العناء اليومي المتصل، ويخلصنا من هذا المخرج (المجتمع) المستبد؟

أعتقـد أن مـن المسـتحيل التمتـع بالروابـط الاجتماعيـة الرائعـة التـي ينميهـا، ويدعمهـا المجتمـع وبنية الأسرة المتماسـكة وفي الوقت نفسـه التخلـص من الفضول والرقابة الاجتماعية المستمرة والسلبية.

وتجربـة المجتمعـات الغربيـة تشـهد على أن تحقيق قـدر كبير من الحريـة الفردية والتخلص من الرقابة الاجتماعية الصارمة أو بحسب عنوان هذا الفصل الخروج من

obeikandi.com

المسرح أو إغلاقه تماماً قد كلف المجتمع تكاليف باهظة جدًّا، وسـبّب ضعفاً كبيراً في بنيته وعلاقة أفراده. وقد صدر كتاب جميل بعنوان:

(THE PARADOX OF CHOICE) للكاتب (Barry Schwartz).

يخالـف الفكرة السـائدة في القيم الغربية التي تقـول: إن مزيداً من الحرية يضفي مزيداً من السـعادة، فقد كشـف الكاتب عن ظاهرة مهمة تقول: إن المجتمعات التي تفرض بعض القيود على أفرادها أكثر سعادة.

إحـدى القواعد الرائعة في ديننا هي الحديث الشريف: **(من حسـن إسـلام المرء تركه ما لا يعنيه)** إلا أننا نتصرف تماماً عكس مقصد هذا التوجيه النبوي الكريم.

فأصبحنـا ننفق كثيراً من الجهد والوقت في أعمال رقابية غير مدفوعة الأجر، بل أحيانـاً نقوم نحن بالعمل، وندفع الأجر، فممارسـة الرقابة وانتقاد الآخرين وإصدار الأحـكام عليهـم فضلاً على أنها تقيد الحريات، وتشـل متعة الحياة فهـي أيضاً عملية مكلفة نفسيًّا كما تشير بحوث علم النفس الإكلينيكي.

في اعتقادي أن كثيراً من التعاسة في المجتمع اليوم مصدرها صعود خشبة المسرح وأداء الأدوار كما يريد المخرج (المجتمع) لا كما يريد الإنسان نفسه.

لا بد هنا من إشـارة واضحة إلى أن بعض القيود ومحددات السلوك منبعها نص دينـي قطعي الثبوت والدلالة، وهذه لا مجال لبحثها، بل نجزم أن مردودها على حياة الإنسان أكبر بكثير من تكاليفها الظاهرة علاوة على أنها رصيد للحياة الآخرة.

ولكن مع الأسـف الشديد أن منظومة القيم المحركة للأفراد (اللائحة التنفيذية للسلوك الفردي في أي مجتمع) لا تلتزم بما تفرضه شريعة المجتمع.

وفي مجتمعنا الإسـلامي غالباً ما تكون سلطة المجتمع أقوى من سلطة الدين في فرض محددات السـلوك. لنأخذ مثلاً جريمة كالزنا وضع لها الإسلام قواعد واضحة

obeikandl.com

أهمهـا المسـاواة التامة بين الرجل والمـرأة في التحريم والعقوبـة، ولكن المجتمعات في العالم الإسلامي لا تلتزم بهذا الهدي النبوي الرباني، وإنما تمارس تمييزاً كبيراً في معاقبة الجنسين عند ارتكاب الجريمة نفسها.

السـؤال المهـم إذا اتفقنـا على صعوبة الاسـتمرار في العمـل في التمثيل القسري بشكل يومي: كيف يستطيع من يرغب في ترك هذه الوظيفة (الأشغال الشاقة المؤبدة) المرهقة أن يقنع المخرج بقبول استقالته؟ أو ربما السؤال بشكل أعمق: هل من الممكن إغلاق هذا المسرح الكبير؟

دعونـا نحـاول أن نجيـب عـن السـؤال الثـاني أولاً، ونقـول: إنـه لا يوجـد مجتمـع إنسـاني دون محددات للسـلوك تدفعها منظومة من القيـم والموروثات، ولكن المجتمعات تختلف بشكل كبير حول طبيعة هذه المحددات ودرجة العقوبة المفروضة على المتجاوزين.

مشـكلة مجتمعنـا العـربي (المحافـظ خصوصـاً) هـي في المسـاحة الضيقـة التي تفسحها هذه المحددات للمناورة في السلوك وقسوة العقاب عند التجاوز، ولا بد من الإقـرار بوجود إيجابيات لبعض هذه المحددات، ولكن المتابع لمسـيرة هذه المحددات خلال الثلاثين سـنة الماضية يلاحظ أن جوانبها الإيجابية في ضعف مستمر، وجوانبها السلبية في نمو مطرد.

تأمل مجموعة من المدعوين في مناسـبة ما، وحـاول أن تتذكر كيف كانت الحال قبل ثلاثين سنة، فستجد أن المحددات الإيجابية في هبوط والسلبية في صعود.

هـل هددت الوفرة المفاجئة منظومة القيـم في مجتمع اعتاد على القلة في كل شيء قروناً طويلة؟

obeikandl.com